

مراجعة نقدية لآراء توماس ارنولد عن الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء حتى القرن 9هـ/15م

م. د. بشار أكرم جميل*

تاريخ القبول: 2009/9/30

تاريخ التقديم: 2009/7/29

تمهيد:

يهتم البحث بظهور الإسلام وانتشاره في أفريقيا جنوب الصحراء من خلال كتاب الدعوة إلى الإسلام للمؤرخ توماس ارنولد، وفي البدء لابد من تحديد الإطار الجغرافي للمنطقة التي سيتناولها البحث والتي يحدها من الشمال الصحراء الكبرى ومن الجنوب الغابات الاستوائية الواقعة بالقرب من خط الاستواء، أما من الشرق فيحدها البحر الأحمر ومن الغرب البحر المحيط (المحيط الأطلسي) ⁽¹⁾، وقد سميت تلك المنطقة من قبل المؤرخين العرب المسلمين ببلاد السودان ⁽²⁾ وقد قسمت فيما بعد إلى ثلاث مناطق هي السودان الشرقي والذي يشمل المنطقة المحصورة ما بين البحر الأحمر شرقاً وبحيرة تشاد غرباً وحدود مصر الجنوبية شمالاً ومنطقة الغابات الاستوائية جنوباً وتمثله حالياً دول السودان والصومال وأثيوبيا وكينيا وأوغندا، والمنطقة الثانية هي السودان الأوسط والمتمثلة بحوض بحيرة تشاد والتي تشمل حالياً دول الكامرون وتشاد والنيجر وجمهورية أفريقيا الوسطى، والمنطقة

* قسم التاريخ/ كلية الآداب/ جامعة الموصل.

(1) أبو القاسم محمد بن علي النصيبي بن حوقل، صورة الأرض، (بيروت: 1979)، ص 25.

(2) أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم البلدان، دار الفكر، (بيروت: د/ت): 486/4

؛ عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، (بيروت: 1956): 84/1.

الثالثة وهي السودان الغربي وتبدأ من ثنية نهر النيجر لتنتهي عند سواحل المحيط الأطلسي وتمثلها حالياً دول السنغال وموريتانيا وغينيا ومالي وغانا⁽³⁾.

لقد تناول البحث آراء أحد المؤرخين الذي كتبوا عن أفريقيا جنوب الصحراء من خلال كتابه الدعوة إلى الإسلام، ذاك الكتاب الذي تناول في بعض صفحاته تاريخ المنطقة بشكل بسيط على عكس آخرين كتبوا بشكل أوسع عن المنطقة كالمبشر للمسيحية سبنسر ترمنجهام، فضلاً عما كتبه زويمر، ودينيس بولم، وديشان، وغيرهم. وبالمقابل نلاحظ وجود القلة من الكتاب الذين كتبوا بقدر من الموضوعية عن المنطقة وأظهروا صورة الإسلام والمسلمين الحقيقية، وكان من بين أولئك الكتاب المستشرق توماس أرنولد الانكليزي الجنسية والذي ولد في مدينة (ديفونبورت) قرب لندن سنة 1864م⁽⁴⁾.

وقد درس توماس أرنولد في جامعة كمبردج ومنها بدأت لديه فكرة دراسة التاريخ الإسلامي، ذلك الطموح الذي لم يكن ليتحقق من دون زيارة منطقة الشرق للإطلاع عن كثب، فقرر السفر إلى الهند والتي قام بتدريس مادة الفلسفة في إحدى كلياتها⁽⁵⁾ مستفيداً في الوقت ذاته من التقرب من عميدها شبلي النعماني (1857-1914م) والذي كان من كبار علماء الهند الذين أفادوا أرنولد في دراسة العقيدة الإسلامية من خلال السفر معه إلى سوريا ومصر وتركيا وغيرها من الدول⁽⁶⁾. وكان تأثير النعماني وعلماء هنود آخرين على توماس أرنولد واضحاً للحد الذي جعله يرتدي الزي الإسلامي تعاطفاً مع زملائه المسلمين وتلامذته، مما

(3) مجموعة من المستشرقين، دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة: أحمد الشنتاوي،

(القاهرة: 1973) 337/12: 338.

(4) يحيى مراد، معجم أسماء المستشرقين، دار الكتب العلمية، منشورات: محمد علي بيضون، (بيروت: 2004)، ص 94.

(5) نجيب العقيلي، المستشرقون، دار المعارف، (القاهرة: 1965) 2: 504.

(6) زاهدة محمد طه محي الدين المزوري، النظرية السياسية الإسلامية في دراسات المستشرقين توماس أرنولد - هاملتون جب - أن لامبتون أنموذجاً، أطروحة دكتوراه غير منشورة، (جامعة الموصل: 2006)، ص 17.

مراجعة نقدية لآراء توماس ارنولد عن الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء حتى القرن 9هـ/15م

م. د. بشار أكرم جميل

أكسبه احترام مسلمي الهند ودخوله في مناظرات معهم تمخض عنها تأليفه لكتاب الدعوة إلى الإسلام سنة 1896م⁽⁷⁾.

استمر توماس ارنولد في تدريس الفلسفة إلا أنه تحول في عام 1898م لتدريسها في لاهور حتى عام 1904م، ليعود بعد ذلك إلى لندن ويشغل منصب أمين مكتبة وزارة الهند⁽⁸⁾ حتى عام 1909م عندما قام بتدريس اللغة العربية في لندن وعمل مستشاراً تعليمياً للطلبة الهنود في بريطانيا⁽⁹⁾.

لقد كان توماس ارنولد أول من جلس على كرسي الأستاذية للدراسات العربية في مدرسة اللغات الشرقية بلندن سنة 1904م ومن ثم اختير عميداً لها للفترة (1921-1930)، فضلاً عن ذلك فقد قام بزيارة مصر أوائل سنة 1930، وحاضر في الجامعة المصرية عن التاريخ الإسلامي⁽¹⁰⁾، وفي العقد الأخير من حياة ارنولد تولع بدراسة الفن الإسلامي، واستمرت عنايته بهذا الجانب من الحضارة الإسلامية حتى وفاته سنة 1930م⁽¹¹⁾.

وهنا لابد من القول بأن الدراسة ستكون مقتصرة على كتابه الدعوة إلى الإسلام لكون الكتاب قد تناول تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء، كما أنه لابد من التأكيد على أن المراجعة النقدية لا تعني بالضرورة النقد السلبي لما تناوله المؤرخ لا بل أن المقصود هنا العرض ومقارنة النصوص بما يقابلها عند المؤرخين والكتاب المسلمين.

مؤلفاته والتعريف بكتابه الدعوة إلى الإسلام:

لقد ألف ارنولد مجموعة كتب كان من بينها كتاب الخلافة والذي جمع فيه محاضراته التي كان قد ألقاها على طلابه عن مادة الفكر الإسلامي ضمن تاريخ

(7) المزوري، النظرية السياسية، ص17. نقلاً عن:

Theodore Morison and H.A.R. Gibb , " Sir Thomas Amold".JRAS , 1930,Vol.Xvll , p.398.

(8) مراد، معجم، ص94.

(9) العقيلي، المستشرقون: 504/2.

(10) العقيلي، نفسه.

(11) المزوري، النظرية السياسية، ص24.

الخلافة الإسلامية خلال عصورها المختلفة، وقد تناول الكتاب عرض شامل لتاريخ مؤسسة الخلافة منذ وفاة الرسول محمد ﷺ وحتى إلغائها عام 1924م⁽¹²⁾، كما ألف ارنولد مجموعة أخرى من الكتب من بينها رسامو القصر في عصر المغول العظيم، وكتاب الرسم في الإسلام، والكتاب الإسلامي، وكتاب العقيدة الإسلامية، فضلاً عن دراسات أخرى منها الهندوكية والإسلام في الهند، والمخطوطات العربية والفارسية في أمانة حكومة الهند، وعيسى ومريم في الفن الديني الإسلامي، ومجموعة أخرى من الدراسات المختلفة⁽¹³⁾، ورغم ذلك العدد الكبير من الكتب والدراسات إلا أن كتاب الدعوة إلى الإسلام كان من بين الكتب التي تناولت في ثناياها منطقة أفريقيا جنوب الصحراء والذي تم استخدام الطبعة الثالثة منه والمترجمة إلى العربية من قبل الدكتور حسن إبراهيم حسن زميليه عبد المجيد عابدين وإسماعيل النجداوي في عام 1970م والتي كتب مقدمتها (ر.أ. نيكلسون)⁽¹⁴⁾.

والكتاب يقع في (521) صفحة ويحوي فهرساً عاماً في نهايته، وهو يتألف من ثلاثة عشر باباً، تناول الأول التعريف بالدين الإسلامي وسلمية الدعوة والنهي عن الإكراه، والثاني تناول حياة الرسول محمد ﷺ وهجرته إلى المدينة المنورة، فضلاً عن اتساع رقعة الإسلام بعد الهجرة. وتناول الباب الثالث انتشار الإسلام في بلاد الشام وفلسطين، وفي الباب الرابع تم تناول انتشار الإسلام بين مسيحيي أفريقيا كما سماه المؤلف⁽¹⁵⁾.

وفي الأبواب الخامس والسادس والسابع تناول المؤلف الإسلام في الأندلس وصولاً إلى أوروبا ومن ثم انتشاره في بلاد فارس وأواسط آسيا وترحيب السكان

(12) المزوري، النظرية السياسية، ص20.

(13) مراد، معجم أسماء المستشرقين، ص95.

(14) توماس. و. ارنولد، الدعوة إلى الإسلام، ترجمه إلى العربية وعلق عليه: حسن إبراهيم

حسن وآخرون، (القاهرة: 1970)، ص3.

(15) ارنولد، الدعوة، ص19-20.

مراجعة نقدية لآراء توماس ارنولد عن الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء حتى القرن 9هـ/15م

م. د. بشار أكرم جميل

به⁽¹⁶⁾. أما الأبواب الثامن والتاسع والعاشر فتتناول فيها ارنولد الإسلام في الهند، وبين المغول، ومن ثم الصين ولاسيما في عهد دولة تانج، ودولة منج، ودولة منشو⁽¹⁷⁾.

وفي الباب الحادي عشر تناول المؤلف انتشار الإسلام في أفريقيا ومركزاً على منطقة جنوب الصحراء، والتي أشار إلى ظهور الطرق الصوفية فيها من تيجانية وسنوسية وقادرية، ثم وصول الإسلام إلى سواحل أفريقيا الشرقية والغربية، مختتماً ذلك الباب بالإشارة إلى دور الدعاة. أما الباب الثاني عشر فقد تناول الإسلام في أرخبيل الملايو ووصله إلى سومطرة وجاوة وبورنيو والفلبين، وأخيراً فقد تناول الباب الثالث عشر الدعاة المسلمين وعوامل نجاحهم⁽¹⁸⁾.

مراجعة نقدية:

لقد حصر ارنولد كتاباته عن أفريقيا جنوب الصحراء في البابين الرابع والحادي عشر من كتابه الدعوة إلى الإسلام، بعد أن أطلق على الرابع كما تم الإشارة سابقاً الإسلام بين مسيحيي أفريقيا، إلا أن ما يهمنا في هذا الباب هو بلاد النوبة ودخول الإسلام إليها، فقد أشار توماس ارنولد إلى علاقة المسلمين ببلاد النوبة في عهد الخلفاء الراشدين وبالذات عقد معاهدة البقط⁽¹⁹⁾ في عهد الخليفة عثمان بن عفان ؓ وما تبعها من عدم التزام النوبة بتنفيذ بعض بنودها وما ترتب على ذلك من اعتداء النوبة على سكان المناطق المحاذية لبلادهم كأسوان والصعيد ووادي العلاقي، وهنا لا بد من الإشارة إلى أن توماس ارنولد أشار إلى

(16) ارنولد، نفسه، ص21.

(17) ارنولد، نفسه، ص22.

(18) ارنولد، نفسه، ص23.

(19) معاهدة البقط: هي المعاهدة التي عُقدت سنة 31هـ بين المسلمين والنوبة بعد الحملة التي قادها عبد الله بن سعد بن أبي سرح على النوبة حينما حاصر عاصمتهم دنقلة، وقد نصت تلك المعاهدة على عدة شروط تضمنت العلاقات بين الطرفين لمدة ستة قرون تقريباً. ينظر نص المعاهدة في: تقي الدين أحمد بن علي المقرئ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقرئية، (بولاق: 1294هـ): 199/1-200.

العلاقات الإسلامية النوبية في العصر العباسي ولكن بشكل مختصر وغير مطابق للحقيقة، فقد ذكر أن ملك النوبة قام بزيارة للبلاد الإسلامية وبالذات مصر، وتم استقباله بحفاوة وعاد محملاً بالهدايا من قبل المصريين⁽²⁰⁾، ويبدو أن هناك خلطاً في المعلومات فالاعتداءات من قبل النوبة وعدم تنفيذ الاتفاقية انتهت بتحذير الخليفة المعتصم العباسي (218-227هـ/833-841م) للنوبة من أن الاستمرار بعدم تنفيذ المعاهدة سيضطره لمقاتلتهم مما جعل ولي عهد النوبة جورج بن زكريا بن يحنس - وليس ملكها - بالقيام بزيارة بغداد ولقاء الخليفة وحل المشكلة⁽²¹⁾.

وفي عهد المماليك كان للمشاكل الداخلية في بلاد النوبة دور في انتشار الإسلام في بلادهم، فقد استتجد شكندة - أمير من أمراء النوبة - بالمسلمين في مصر سنة 674هـ/1275م على قتال خاله الملك داؤد، وبعد أن لبي المسلمون طلبه وحقق النصر تم تنصيبه حاكماً للنوبة بدلاً عن ملكها مقابل الالتزام بعدة شروط من ضمنها أن يدفع كل بالغ قرر البقاء على النصرانية للمسلمين مبلغ دينارين سنوياً للفرد كجزية، وكذلك الإشراف المباشر للظاهر بيبرس على المناطق الشمالية من النوبة وبالذات (المريس)⁽²²⁾، والتي أشار ارنولد إلى أنها أخذت ومنطقة أخرى لم يحددها كثنم للمساندة رغماً عن ملكها الجديد⁽²³⁾.

كما أن لهجرة القبائل العربية ومنها قبيلة جهينة وربيعة إلى بلاد النوبة سنة (255هـ/868م) دوراً كبيراً في انتشار الإسلام هناك، من خلال تزايد

(20) ارنولد، الدعوة، ص131. نقلاً عن:

Ishok of Romgla , Chronique de Michel le Grand traduite sur la version armenienne du pretre Iskok par victor Lanhlois (venise: 1838) , p. 272-273

(21) المقرئزي، المواعظ: 201/1 ؛ حاج حمد محمد خير، زيارة ولي عهد النوبة إلى بغداد في زمن المعتصم، بحث منشور في مجلة المؤرخ العربي، العدد (23)، (بغداد: 1983)، ص118.

(22) المقرئزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، صححه: محمد زيادة، (القاهرة: 1941): 94/2.

(23) ارنولد، الدعوة، ص131.

مراجعة نقدية لآراء توماس ارنولد عن الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء حتى القرن 9هـ/15م

م. د. بشار أكرم جميل

المسلمين حتى في المناطق التي يسيطر عليها النصارى⁽²⁴⁾، فقد اختلطت ربيعة عند وصولها المنطقة بقبائل البجة والنوبة وتصاهروا معهم وبالتالي سيطروا على الحكم هناك، وفي أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي حصلت معركة بين قبيلة ربيعة وقبيلة جهينة التي انتصرت فيها ربيعة، وبقيت تسيطر على تلك المناطق وصولاً إلى حد مدينة أسوان، ليؤسسوا فيما بعد دولة أطلق عليها دولة الكنوز الإسلامية⁽²⁵⁾، ومن الجدير بالذكر بأن مملكة النوبة في تلك الفترة كانت تنقسم إلى مملكتين هما المقررة وعاصمتها دنقلة، ومملكة علوة وعاصمتها سوبا⁽²⁶⁾.

ويتبنى توماس ارنولد نصاً للمؤرخ ابن بطوطة أكد فيه أن النوبة كانوا على النصرانية في عهده وأن مدينة دنقلة أكبر مدن النوبة وسلطانها يدعى بابن كنز الدين والذي اسلم على عهد الملك الناصر⁽²⁷⁾. وهنا لابد من الإشارة إلى أن ابن بطوطة لم يحدد لنا من هو ذلك الملك الناصر، فضلاً عن استخدامه لكلمة كنز الدين⁽²⁸⁾ والغريب في الأمر أن الفترة التي عاش فيها ابن بطوطة هي نفسها التي أصبحت بلاد النوبة مسلمة بالكامل ولاسيما سنة 723هـ/1323م والتي شهدت نهاية مملكة المقررة المسيحية وعاصمتها (دنقلة) وبداية حقيقة لبني الكنز والذين استمروا في حكمهم للنوبة حتى مجيء العثمانيين إليها⁽²⁹⁾. ويبدو أن

(24) ارنولد، نفسه.

(25) (المقريزي، البيان والأعراب عما بأرض مصر من الأعراب، عالم الكتب، (القاهرة: 1961)، ص45.

(26) أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح البعقوبي، تاريخ البعقوبي، دار صادر ودار بيروت للطباعة، (بيروت: 1960): 1/191.

(27) ارنولد، الدعوة، ص132.

(28) محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، اعتنى به وراجعته: درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت: 2007/2: 274.

(29) محمد جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون في مصر، (القاهرة: 1947)، ص155.

المقصود بكنز الدين هو لقبهم العام وهو كنز الدولة، كما أن من دخلت في عهده النوبة الإسلام هو السلطان الظاهر بيبرس وليس الناصر⁽³⁰⁾ ويعزو ارنولد سبب انهيار المملكة النوبية المسيحية في تلك الفترة لعدة أسباب، منها الانقسامات الداخلية في النوبة، وقيام مملكة الفونج القوية في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، فضلاً عن وصول الهجرات العربية المتتالية إلى النوبة⁽³¹⁾. وفيما يتعلق بانتشار الإسلام في الحبشة، فقد أشار المؤلف إلى أنه وحتى القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي لم يكن سوى عدد قليل من الأسر الحبشية قد دخلت في الإسلام، وأن تأسيس دولة عربية في الحبشة أدى إلى فصل المناطق الساحلية عن مملكة الحبشة المسيحية في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي⁽³²⁾. وفضلاً عن عدم تحديد المؤلف لاسم تلك المملكة العربية، فإنه يبدو قد وقع في خطأ حينما أشار إلى أنها نشأت في القرن السادس الهجري، في حين أن هناك من يشير إلى قيام مملكة شوا في الحبشة على يد مهاجرين من بني مخزوم بزعامة ود بن هشام في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه⁽³³⁾، كما أن تأسيس مملكة اوفات الإسلامية في الحبشة وهي من ممالك الطراز الإسلامي وذلك في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي وهو لا يطابق أيضاً التاريخ الذي ذكره توماس ارنولد⁽³⁴⁾.

وكان لممالك المسلمين في الحبشة الدور الفاعل في نشر الإسلام وصد هجمات المملكة المسيحية من خلال خوض الكثير من المعارك بين الطرفين،

(30) يوسف فضل حسن، دراسات في تاريخ السودان، دار التأليف والترجمة والنشر، ط 1،

(الخرطوم: 1975) 1/51-52.

(31) ارنولد، نفسه، ص 132.

(32) ارنولد، نفسه، ص 135.

(33) فتحي غيث، الإسلام والحبشة عبر التاريخ، شركة الطباعة المتحدة، (القاهرة: د/ت)، ص 83-84 ؛ دريد عبد القادر نوري، تاريخ الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء، (الموصل: 1985)، ص 193.

(34) المقرئزي، الإمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، (مصر: 1895)، ص 9.

مراجعة نقدية لآراء توماس ارنولد عن الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء حتى القرن 9هـ/15م

م. د. بشار أكرم جميل

والتي كان من بينها تلك المعركة التي تزعمها رجل اسمه أبو عبد الله محمد سنة 699هـ/1299م ضد (ودم أرعد) ملك الحبشة آنذاك⁽³⁵⁾، والتي انتهت بانتصار المسلمين، إلا أن الاضطهاد الذي مارسه ملوك الحبشة ضد المسلمين استمر حتى وصل لحد قيام ملك الحبشة سيف ارعد 743-772هـ/1342-1370م بقتل من رفض أن ينتصر من المسلمين في بلاده⁽³⁶⁾ كما استمر ذلك الاضطهاد في عهد زرع يعقوب (تولى العرش سنة 838هـ/1434م) والذي كان أشد حقدًا على المسلمين في الحبشة، ففرض على مسلمي مملكة هدية أن يدفعوا له جزية سنوية تتمثل بتقديم فتاة مسلمة يحولها إلى النصرانية ويبقيها عنده كجارية، كما منعهم من لبس عدة الحرب ومن ركوب الخيل⁽³⁷⁾.

وبالمقابل فقد أشار المؤلف إلى الهجرات العربية الإسلامية إلى الساحل الشرقي لأفريقيا مؤكداً أن أولها كان هجرة الزيدية أتباع زيد بن علي بعد فشل ثورتهم ضد الأمويين سنة 122هـ/740م، والذين ما أن وصلوا إلى منطقة (مدغشقر) على الساحل الأفريقي حتى اختلطوا بالسكان الزنوج وتصارهوا معهم لينتج عن ذلك الاختلاط جبل جديد سمي بـ (الاموزيدج)، ثم تبعته هجرة أخرى قادمة من منطقة الإحساء على متن ثلاث سفن كبيرة بقيادة سبعة أخوة من قبيلة الحارث العربية سنة (290-291هـ/902-903م) وصلت إلى الموقع نفسه الذي يتواجد فيه الزيدية ليندفعوا بدورهم إلى الداخل وتركوا مواقعهم للمهاجرين الجدد

(35) المقرئ، السلوك، ج1، ق3، ص916. ويشير ارنولد إلى أن الحدث تم سنة 1300م أي 700هـ، كما أنه يطلق اسم داعية على ذلك المجاهد أبا عبد الله، وأنه قد جمع مائتي ألف رجل حوله ليهاجم ملك الحبشة، وينسب كل هذا الكلام إلى المؤرخ المقرئ في كتابه السلوك. ينظر: ارنولد، الدعوة، ص135.

(36) ارنولد، الدعوة، ص135.

(37) شهاب الدين أحمد بن عبد القادر بن سالم الشهير بعرب فقيه، تحفة الزمان أو فتوح الحبشة، نشره مع مقدمة بالفرنسية: رينيه باسيه، حققه: فهم محمد شلتوت، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة: 1974)، ص281.

الذين يعود إليهم بناء مدينة مقديشو⁽³⁸⁾. فضلاً عن تلك الهجرتين فقد هاجر (حسن بن علي) ابن حاكم مدينة شيراز إلى الساحل الشرقي ونزل وعائلته ومؤيديه إلى الموقع الذي أسست عليه مدينة كلوة سنة 364هـ/975م⁽³⁹⁾.

ولم يكن استعراض الهجرات إلى السودان الشرقي ولا سيما الساحل موفقاً من قبل المؤلف، فقد اقتصر على تلك الهجرات التي تم ذكرها في كتابه الدعوة وتجاوز أولى الهجرات إلى المنطقة بقيادة سعيد وسليمان أبني الجلندي سنة 69هـ بعد هروبهم من الأمويين واستقرارهم في الموقع الذي تأسست عليه مدينة باتا سنة 80هـ/699م⁽⁴⁰⁾، فضلاً عن هجرة النبهانيين بقيادة سليمان بن سليمان بن مظفر النبهاني سنة 601هـ/1201م إلى المنطقة⁽⁴¹⁾.

وعند الحديث عن المنطقة نفسها - الساحل الشرقي الأفريقي - يردد توماس ارنولد الرواية التي نقلها عن صاحب كتاب عجائب الهند والتي تحمل طابعاً أسطورياً قائلاً إن مركباً تجارياً أقصته الرياح عن مساره سنة 922م⁽⁴²⁾ لترسيه في ساحل الزنج الذين يأكلون لحوم البشر، حيث توقع التجار الموت المحقق، إلا أن توقعهم قد خاب، لما لقوه من استقبال وترحيب من قبل الملك وباعوا خلال بقائهم في بلاده بضاعتهم بأرباح جيدة، وحينما أرادوا السفر ردوا للملك كرمه بخيانة كبيرة تمثلت بتقييده هو وحاشيته حين توديعه لهم وحملوه معهم إلى عُمان رقيقاً، والغريب في الأمر أن الرياح عادت بنفس القارب والرجال إلى

(38) ارنولد، الدعوة، ص378.

(39) جيان (ربان سفينة)، وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن شرق أفريقيا، ترجمة: يوسف كمال، ط1، (القاهرة: 1927)، ص86-88. وقد ذكر ارنولد اسم المدينة (كلو).

(40) نور الدين عبد الله بن حميد السالمي، تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، صححه وعلق عليه: أبو اسحق اطفيش الجزائري، ط2، (القاهرة: 1931): 61/1-62.

(41) سبنسر ترمنجهام، الإسلام في شرق أفريقيا، ترجمة: محمد عاطف النواوي، راجعه: فؤاد محمد شبل، ط1، مكتبة الأنجلو المصرية، (القاهرة: 1973)، ص45-46.

(42) في الكتاب السنة 1922م وهي خطأ لأن المؤلف ذكر أن الحادثة في القرن العاشر الميلادي. يُنظر: الدعوة، ص379.

المكان ذاته، فما كان من التجار سوى توقع الموت هذه المرة لما فعلوه مع ملك تلك البلاد الذي تفاجئوا به هناك حينما جلبهم الأهالي إليه، وبدلاً من أن يقتص منهم عفا عنهم وتركهم يبيعوا بضاعتهم، وحينما سأله أحد التجار عن كيفية عودته إلى بلاده قال أنه بيع كرقيق في البصرة، وبعدها أخذ إلى بغداد وهرب من مولاه ليلحق بقافلة ذاهبة لمكة المكرمة وأدى فريضة الحج، وذهب بعدها إلى القاهرة وصعد بالنيل إلى بلاده، وأشار إلى أن سبب إعفائه عن التجار هو أنهم كانوا السبب في دخوله ودخول قومه في الإسلام⁽⁴³⁾.

لقد أتبع المؤلف هنا أسلوب التصديق بالرواية كما هي وهو الأسلوب ذاته الذي كان يتبعه المستشرقون في تعاملهم مع الروايات الخاصة بالتاريخ الإسلامي، ذلك الأسلوب الذي يظهر للقارئ تعاطف الكاتب مع الإسلام والمسلمين إلا أنه يضع في ثنايا الكلام ما يسيء للإسلام، وهو ما ظهر في تلك الرواية السابقة والتي أراد صاحبها أن يقول للقارئ أن المسلمين في تعاملهم مع الآخرين يحملون صفة الغدر وعدم الوفاء مع من يمد لهم يد العون والاحترام وهو ما حصل مع الملك الذي قدرهم خير تقدير، وقد برر ارنولد تلك الرواية من خلال قوله إن عمل أولئك التجار أنصب فيما بعد في مجال الدعوة للإسلام. كما أن إطلاق كلمة أسطورة على تلك الرواية أمر مقبول، فمن غير المعقول أن يقوم غرباء باختطاف ملك من بين حاشيته وحراسه ومن داخل بلده ويعملوا على ربطهم جميعاً وأخذهم كرقيق، وإذا كان الأمر غير معقول في أي بلد فكيف يُقبل الأمر في بلد يأكل سكانه البشر كما يدعي المؤلف.

ويعزو توماس ارنولد عدم انتشار الإسلام في المناطق الداخلية لشرق أفريقيا واقتصاره على الساحل إلى عدم تطلع الأفارقة إلى التعلم من العرب المسلمين الذين اتصلوا بهم حوالي خمسة قرون مما لم يجعلهم يتقدمون حضارياً،

فضلاً عن انشغال سكان المغرب العربي عن تطوير الأفارقة حضارياً وعملهم بالتجارة وصيد الرقيق⁽⁴⁴⁾.

ويبدو أن توماس ارنولد قد نسي أنه أشار في صفحات كتابه هذا إلى الدور الاجتماعي الكبير الذي قام به المسلمون في اختفاء الكثير من العادات الوثنية كأكل لحوم البشر وتقديم القرابين البشرية وعدم الاغتسال ووأد البنات وغيرها من الرذائل⁽⁴⁵⁾، كما أنه لم يلاحظ التطور الاقتصادي الكبير الذي ظهر في شرق أفريقيا كما في غربها، فقد تغير نظام الضرائب وأصبح الأغنياء يدفعوها كزكاة وصدقات للفقراء عن طيب خاطر وقناعة⁽⁴⁶⁾، أما في الجانب السياسي فقد ظهرت هناك بعد دخول الإسلام دولاً دستورية، فقد عرفوا أن الأمة المسلمة ممثلة بأهل الحل والعقد هي مصدر السلطات، وظهرت لديهم سلطة تنفيذية ممثلة بالحاكم والوزراء والأمراء⁽⁴⁷⁾، فضلاً عما وصلته مدن شرق أفريقيا من تطور ثقافي تمثل ببناء المدارس وظهور الفقهاء وطلاب العلم الذين درسوا في الأزهر وفي مدارس القيروان وفاس⁽⁴⁸⁾. فأبي تخلف وعدم تطور في شرق أفريقيا يقصده توماس ارنولد.

أما الجهة الثانية من أفريقيا جنوب الصحراء أو ما يسمى بالسودان الغربي فقد أشار توماس ارنولد إلى تأسيس إحدى مدنها وهي مدينة جني⁽⁴⁹⁾ سنة

(44) ارنولد، الدعوة، ص 381. نقلاً عن:

Thomson Joseph, Mohammedanism in Central Africa, Contemporary Review, Dec. 1886, p.186

(45) ارنولد، الدعوة، ص 397.

(46) محمد عبد الله النقيرة، انتشار الإسلام في شرق أفريقيا ومناهضة الغرب له، دار المريخ، (الرياض: 1982)، ص 262.

(47) النقيرة، المرجع نفسه، ص 264.

(48) النقيرة، انتشار الإسلام، ص 277.

(49) جني: وهي مدينة من مدن السودان الغربي والتي تأسست سنة 435هـ/1033م، وتقع على مسافة (60 كم) إلى الجنوب الغربي من مدينة تمبكتو، وكانت مدينة جني مركزاً تجارياً وثقافياً

مراجعة نقدية لآراء توماس ارنولد عن الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء حتى القرن 9هـ/15م

م. د. بشار أكرم جميل

435هـ/1043م، والتي كانت مركزاً تجارياً هاماً، دخلت الإسلام رسمياً حينما اسلم ملكها المدعو (كنبرو) أمام علماء بلده من المسلمين والذين كانوا من الكثرة بحيث قُدر عددهم بـ (4200) عالم، أما المدينة الثانية فهي مدينة تمبكتو⁽⁵⁰⁾ التي كانت حاضرة للعلم والثقافة، ومحطة للقوافل التجارية⁽⁵¹⁾، وقد امتدح المؤرخ ابن بطوطة تلك المدينة والتزام سكانها بالإسلام وتبكيهم لحضور صلاة الجمعة والجماعات⁽⁵²⁾.

والذي يؤخذ على المؤلف هو عدم ذكره لدولة غانة الإسلامية وانتشار الإسلام فيها، فضلاً عن إغفاله لتاريخ دولة الصنغاي، مقابل التطرق إلى تاريخ دولة مالي الإسلامية بشكل مختصر مكتفياً بالكلام عن بعض مدنها.

وفيما يتعلق بمعالجته لموضوع الدعوة إلى الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء ودور الدعاة في ذلك فقد تطرق إلى دور قبائل الماندنغو⁽⁵³⁾

هاماً، إذ ضمت العديد من العلماء والذي وصل عددهم إلى (4200) عالم حينما جمعهم ملكها (كنبرو) ليعلن إسلامه أمامهم. يُنظر: نوري، تاريخ، ص286-287. (50) تمبكتو: مدينة على نهر النيجر تأسست في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وكانت مركزاً تجارياً وثقافياً مهماً ولاسيما على عهد السلطان منسا موسى التكروري، وقد قصدها الفقهاء وطلاب العلم من أماكن مختلفة. ينظر: نوري، تاريخ، ص284.

(51) ارنولد، الدعوة، ص355.

(52) ابن بطوطة، تحفة النظار: 2/282.

(53) الماندنغو: وهي القبائل المؤسسة لدولة مالي الإسلامية، والتي سكنت في المناطق الواقعة بين نهر النيجر والمحيط الأطلسي في أعالي وديان نهر السنغال، وقد تم إطلاق أكثر من تسمية على تلك القبائل منها الماندنكا و المانتكا والماندن، وكلمة ماندنغو تعني في لغة سكان غانة من السوننك (عند السيد)، وفي العموم فإن الماندنغو تشير إلى مجموعة لغوية أكثر مما تشير إلى مجموعة سكانية. ينظر: نوري، تاريخ، ص299.

والحوصة⁽⁵⁴⁾ في نشر الإسلام بين القبائل الوثنية⁽⁵⁵⁾. متناسياً دور قبائل غانة من السوننك⁽⁵⁶⁾ الذين أصبح اسمهم مرادفاً لكلمة داعية لما أبدوه من نصر للإسلام ونشاط في دعوة الوثنيين.

ورغم تأكيد المستشرق توماس ارنولد إلى أن انتشار الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء تم بالطرق السلمية كما في بقية المناطق، إلا أن ما يؤخذ عليه هو قوله: ((إن النار وسفك الدماء طالما ميزا خطة الجهاد، التي دُبِرت لاستئصال شأفة الكفار))⁽⁵⁷⁾ وقوله: ((ومع أن الإسلام كثيراً ما شهر السيف كأداة يستعين بها على تقديم فتوحاته الروحية، نجد أن مثل هذا الالتجاء إلى القوة وسفك الدماء كان يسبقه في معظم الحالات جهود سلمية في نشر الدعوة))⁽⁵⁸⁾. إن النصين السابقين يصلحان في أغلب فتوحات المسلمين والتي جاءت الأوامر الإلهية وأوامر الرسول محمد ﷺ بأن يخير فيها غير المسلمين بثلاثة خيارات، الإسلام أو دفع الجزية أن رفضوا الدخول في الإسلام، وأخيراً القتال⁽⁵⁹⁾. إلا أن ذلك الأمر يكاد يكون قليل جداً في جنوب الصحراء، فلم يحصل أن استخدمت القوة في دخول

(54) الحوصة: وتكتب أيضاً الهوسا، وهي في الأصل اسم لغة قبل أن تكون اسم لقبيلة، وقد أطلقت على السكان الذين تكلموا بتلك اللغة والذين كانوا في السودان الأوسط، وأسسوا لهم مملكة هناك، ثم انتشروا بعد ذلك في أماكن مختلفة مثل ساحل أفريقيا الغربي وداهومي. يُنظر: محمد فاضل علي باري و سعيد إبراهيم كريدية، المسلمون في غرب أفريقيا - تاريخ وحضارة -، دار الكتب العلمية، ط1، (بيروت: 2007)، ص 145-146.

(55) ارنولد، الدعوة، ص 356.

(56) السوننك: وهي إحدى القبائل التي يرجع إليها الفضل في تأسيس دولة غانة الإسلامية في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وكانوا يقيمون في الصحراء الكبرى، إلا أنهم تركوها واستقروا على حافاتها الجنوبية وامتزجوا بالبربر والفولانيين. ينظر: نوري، تاريخ، ص 289.

(57) ارنولد، الدعوة، ص 390.

(58) ارنولد، المرجع نفسه، ص 390.

(59) أبو عبد الله محمد بن أدريس الشافعي، كتاب الأم، دار المعرفة، ط 2، (بيروت: 1393هـ): 4 / 172 ؛ أبو محمد عبد الله بن قدامة المقدسي، المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل، دار الفكر، ط1، (بيروت: 1405هـ): 266/9.

مراجعة نقدية لآراء توماس ارنولد عن الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء حتى القرن 9هـ/15م

م. د. بشار أكرم جميل

الإسلام إلى أفريقيا سوى ما حصل في بلاد النوبة حينما أنتصر عليهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح ودفعوا الجزية⁽⁶⁰⁾، أما ما حصل في الحبشة من قتال بين ممالك المسلمين هناك والمملكة المسيحية لم يكن ليحصل لولا الهجمات الكبيرة التي شنّها النصارى هناك ضد المسلمين الذين تعرضوا للقتل والسلب والنهب وحرق المدن فما كان منهم سوى الرد على ذلك الاعتداء⁽⁶¹⁾.

لقد أشار آرنولد إلى دور الدعاة في نشر الإسلام من خلال استخدامهم الرفق والأناة مع الأفارقة مما ساعدهم في نجاح مسعاهم، أكثر من أي أسلوب آخر ينطوي على العنف⁽⁶²⁾. كما يرى ارنولد إلى أن العمل في التجارة ساعد في عملية نشر الإسلام لما لتلك المهنة من خصائص تجعل صاحبها في تماس مباشر بالناس، فقد شاهد الأفريقي أمامه تجار صادقين في تعاملهم، بعيدين عن الغش والمكيدة فتقربوا منهم وتداخلوا معهم وتعرفوا على ديانتهم واقتنعوا بها فدخلوا فيها، فضلاً عن ذلك فإن للحج دوراً فاعلاً في نشر الإسلام في أفريقيا من خلال ما يحمله الحاج عند عودته لبلده من مفاهيم جديدة عن الإسلام حصل عليها عند لقائه بعلماء الأمة الإسلامية⁽⁶³⁾.

والى جانب هؤلاء يأتي طالب العلم الذي كان قد تفقه في الدين على يد فقهاء المغرب أو الحجاز أو مصر وعاد لبلاده ليقوم بالنصح والإرشاد والتعليم، الأمر الذي جعله يصل إلى مكانة عالية بين السكان لدرجة أنه إذا ما دخل في قريتين متحاربتين فلن يمسه أحد بأذى⁽⁶⁴⁾. كما أن مكانة ذلك الطالب - والذي سيصبح فقيهاً ومعلماً لأبناء بلده - سترتفع لما يقدمه من نصح وإرشاد للسكان، فضلاً عن كونه الوحيد المخول لكتابة التعاويذ وآيات من القرآن الكريم ووضعها

(60) أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، مكتبة مدبولي، ط1، (القاهرة: 1991)، ص 188-189.

(61) المقرئ، ج2، ق1، ص270.

(62) ارنولد، نفسه.

(63) ارنولد، الدعوة، ص391.

(64) ارنولد، نفسه.

في قطع من الجلد أو القماش وتُعلق على الأذرع أو حول العنق، ((وهي مهمة يستطيع أن يستغلها كوسيلة لإكثار عدد المتحولين إلى الإسلام))⁽⁶⁵⁾.

ولابد من الإشارة هنا إلى مسألة استخدام الحجاب والذي يحوي بعض العبارات الخاصة بالدجالين والمشعوذين لا زالت تُستخدم حتى يومنا هذا، وهي لا تمت للإسلام بصلة، وحتى كتابة آيات قرآنية وتعليقها في الصدر أو على اليد غير محبذة بسبب مرور حاملها في أماكن غير طاهرة في بعض الأوقات، ولا يمكن أن نعم ما يقوم به البعض وجعله عاماً بين الجميع، فضلاً عن أن طالب العلم العائد إلى بلده يكون قد تشبع بتعاليم الإسلام وبالفقه وعاد لينشرها بين قومه لا أن يقوم بعمل السحر والشعوذة، كما أن ربط المؤلف بين تلك الأعمال وبين زيادة عدد الداخلين في الإسلام أمر خطير، لأننا إذا قبلنا الأمر فيصبح اعتناق هؤلاء للإسلام غير نابع عن قناعة، وحالما لا يتحقق ما يريد الشخص أو تناقض الواقع مع كلام ذلك الشيخ أو الفقيه فسوف يعود الرجل عن إسلامه.

ويستكمل ارنولد كلامه عن أولئك الأشخاص والذين اعتبرهم هو رجال دين بقوله: ((ومثال ذلك، أنه حينما تطلب منه هذه التعاويذ النساء العواقر أو اللاتي فقدن أولادهن أطفالاً، يفرض عليهن شرطاً لنجاح هذه التعاويذ أن ينشئن أطفال المستقبل على الإسلام))⁽⁶⁶⁾ أن كل أنواع السحر والتعاويذ غير قادرة على إقناع البشر باعتناق دين جديد وهي في ذات الوقت غير قادرة على منح المرأة طفلاً لأن المعطي هو الله تعالى، وإذا ما كانت المرأة وثنية وحاول ذلك الفقيه أن يدخلها وأبناها إلى الإسلام بعد ولادته فسوف تدخل عن عدم رغبة وتخرج عائدة إلى وثنيته بسرعة، لأن دخولها كان عن مصلحة.

إن المكانة الرفيعة التي أحتلها المعلم أو الفقيه في أفريقيا جنوب الصحراء تأتي بسبب كونه معلماً لأولادهم يقوم بتدريسهم القرآن الكريم والسنة النبوية، ولم

(65) ارنولد، الدعوة، ص392.

(66) ارنولد، الدعوة، ص392. نقلاً عن:

Bishod Crowther on Islam in Western Africa (Church Missionary Inteligecer , p.254 , April,1988).

مراجعة نقدية لآراء توماس ارنولد عن الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء حتى القرن 9هـ/15م

م. د. بشار أكرم جميل

يقتصر ذلك على أطفال المسلمين بل شمل الوثنيين منهم أيضاً الذين عدوه واسطة بينهم وبين الله سواء في الحصول على حاجاتهم أو في إبعاد الأخطار عنهم⁽⁶⁷⁾ وربما تكون تلك الفكرة نابعة من اعتقادهم بأن الكهنة الوثنيين هم الواسطة بينهم وبين الإله الأعظم⁽⁶⁸⁾. وهي فكرة تتنافى وتعاليم الإسلام والتي لا تتخذ واسطة بين الإنسان وخالفه، فإذا شعر الإنسان أنه يريد طلب شيء ما من خالقه فسوف يتوجه بالدعاء مباشرة دون اللجوء لواسطة امتثالاً للآية القرآنية ((وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ))⁽⁶⁹⁾

أن مكانة العالم أو طالب العلم كبيرة في ظل الإسلام، تلك المكانة التي كان للقرآن الكريم الدور الأبرز في بيانها، ثم تبعته السنة النبوية الشريفة، كما أن الدلائل على احترام العلماء ورجال العلم كثيرة حتى في أفريقيا، وخير دليل على ذلك ما ذكره مؤرخ السودان محمود كعت من قيام الأفارقة لاسيما في دولة الصنغاي في السودان الغربي بوضع أواني الطعام على رؤوسهم إذا ما كان الذي يتناول الطعام رجل حافظ للقرآن الكريم تقديراً لما يحمله من علم به⁽⁷⁰⁾. إلا أن تلك المكانة لا تصل للحد الذي ذكره توماس ارنولد من جعل ذلك العالم أو طالب العلم بمكانة الدجال أو الساحر أو الكاهن الذي يحل المشاكل ويتوسط بين الناس وبين الله.

ورغم ذلك فإن كلمة حق يجب أن تُقال بحق توماس ارنولد هي حياديته في المقارنة بين موقف المسلمين من الأفارقة مقابل موقف الكنيسة المسيحية منهم، وبيانه لمسألة التعصب المسيحي ضد الجنس الأسود، إذ إن تفوق المسلمين

(67) ارنولد، الدعوة، ص392.

(68) جاك مندلسون، الرب والله وجوجو، ترجمة: إبراهيم أسعد محمد، دار المعارف بمصر

(القاهرة: 1971)، ص43.

(69) سورة البقرة، آية 186.

(70) محمود بن الحاج المتوكل كعت، التاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس

وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور، تحقيق: هوداس، مطبعة بردين، (انجزة: 1913)،

ص180.

في دعوتهم تم من خلال وصولهم إلى قلب الأفريقي الذي رفعه الإسلام إلى مكانة اجتماعية أعلى من مكانته بين قومه سابقاً، وذلك الأمر عكس ما فعله المسيحيون معهم من خلال تعصبهم لجنسهم ضد الجنس الأسود وأن دخل الأخير في ديانتهم، فالأفريقي الذي يعتنق المسيحية يشعر أنه في درجة أدنى من المسيحي الأبيض، فالأبيض السيد، والأسود العبد، كما أن المسيحية تنظر إلى الزنجي على أنه من طبقة منحطة في حين تساوى الجميع في نظر الإسلام⁽⁷¹⁾. والدلائل على ذلك كثيرة ابتدأت منذ عصر الرسول محمد ﷺ حينما أختار سيدنا بلال الحبشي ليكون مؤذناً ومن ثم ليصعد على ظهر الكعبة بعد الفتح ويؤذن، كما أن القرآن الكريم أشار إلى أن الجميع سواسية أمام الله وأن التقوى هي المقياس للتقرب لله تعالى والفوز بالجنة، فضلاً عن ذلك فقد تقلد الكثير من السود المناصب العالية في الدولة العربية الإسلامية وخير دليل على ذلك وصول كافور الاخشيدي⁽⁷²⁾ للحكم في مصر، ووصول ساكورة لحكم إمبراطورية مالي الإسلامية وهو عبد⁽⁷³⁾. وأمام تلك الأمثلة وغيرها الكثير قرر توماس ارنولد أن يتخذ أمثلة لا تمثل موقف الإسلام من السود لا بل هي بعيدة عن ذلك فيقول إن الآيتين القرآنيتين ((وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى))⁽⁷⁴⁾، و

(71) ارنولد، الدعوة، ص394.

(72) كافور الاخشيدي: هو كافور بن عبد الله الاخشيدي، ويلقب بأبي المسك كان عبدا حبشيا اشتراه الاخشيدي ملك مصر سنة 312هـ فنسب اليه واعتقه، وقد حكم مصر سنة 355هـ، استبد بالأمر بعد موت علي بن الاخشيد حتى توفي بالقاهرة سنة 357هـ. ينظر: جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي، النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر و القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر (القاهرة: د.ت): 1/4.

(73) أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الأنشأ، شرحه وعلق عليه: نبيل خالد الخطيب، ط 1، دار الكتب العلمية، (بيروت: 1987): 294/5؛ المقرئ، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الملوك، تحقيق: جمال الدين الشيال، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (القاهرة: 1955)، ص111.

(74) سورة طه، آية 22.

مراجعة نقدية لآراء توماس ارنولد عن الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء حتى القرن 9هـ/15م

م. د. بشار أكرم جميل

((وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ))⁽⁷⁵⁾ تمثلان موقف الإسلام من السود. وهنا لابد من الإشارة إلى أن بيضاء هنا لا تعني أن سيدنا موسى كان أسود اللون كما ذكر ارنولد وإنما بيضاء فوق العادة وبدون برص أو أي شيء يكدر بياضها⁽⁷⁶⁾، كما أنه ضرب مثلاً آخر تمثل بالحوار الذي دار بين إبراهيم بن المهدي (أخو هارون الرشيد) وبين المأمون الذي قال له أنت الخليفة الأسود، فقال إبراهيم أنا الذي مننت عليه بالعفو⁽⁷⁷⁾ والغريب هنا هو أن المؤرخ الطبري مثلاً قد سرد في كتابه تاريخ الرسل ذلك الحوار مفصلاً ولم يشير إلى كون إبراهيم اسوداً، لا بل قال إن الحارس الذي القى القبض على إبراهيم كان أسوداً، كما أن المأمون عفا عن إبراهيم بعد أن سمع منه⁽⁷⁸⁾ ولم يقل له ذلك الكلام الذي ذكره توماس ارنولد.

إن وصول الثقافة الأوروبية إلى المنطقة لم يبعد الأفارقة عن الإسلام وحضارته بل قريبهم منه، وفسح المجال أمام التجار والدعاة ليمارسوا عملهم بصورة أكبر من ذي قبل⁽⁷⁹⁾. ورغم جدية ذلك الكلام وحقيقته، إلا أن توماس ارنولد فاجأنا باستخدامه نصاً يعطي للأوروبيين الفضل في تقدم الدعاة في عملهم من خلال إصدار قرار بتحريم الرق، كما يذكر في نفس النص أنه لم يكن ((من مصلحة العرب وغيرهم من تجار الرقيق المسلمين ألا يضيقوا مجال أعمالهم بالتآخي في الإسلام مع ضحاياهم))⁽⁸⁰⁾.

(75) سورة الأعراف، أية 108.

(76) محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر،

(بيروت: 1405هـ): 14/9؛ إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم

دار الفكر، (بيروت: 1401هـ): 2/237.

(77) ارنولد، الدعوة، ص 396.

(78) (أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، منشورات محمد علي ببيزون،

دار الكتب العلمية، ط3، (بيروت: 2005): 168/5-169.

(79) ارنولد، نفسه، ص 396.

(80) ارنولد، نفسه، ص 399-400. نقلاً عن:

ويبدو أن المؤلف ومن نقل عنه النص لم يطلعا أو حاولا التضييل عما فعله المسلمون في أفريقيا جنوب الصحراء قبل مجيء الأوروبيين إليها، من خلال تعاملهم الحسن مع الرقيق امتثالاً لأوامر الرسول الكريم محمد ﷺ والقاضية بالتعامل الحسن معهم وفتح الأبواب لتحريرهم لدرجة أن ضربهم بشكل متعمد يجعلهم أحراراً، كما أن كفارات القتل الغير متعمد، والإفطار في رمضان والحنث في اليمين كان عتق رقبة، فضلاً عن التقرب لله تعالى في كثير من الأوقات كالمرض والخوف يتم بعتق رقبة، كل ذلك جعل الرقيق في الدولة العربية الإسلامية يعيشون حياة هي أقرب إلى الحرية التي لم يكن الحصول عليها صعباً كما أسلفنا⁽⁸¹⁾، كما أن الأمر لم يقتصر على الرقيق الذاهبين إلى خارج أفريقيا بل شمل الداخل أيضاً، فقد أصدر الماي هيوم جلبي أحد حكام دولة كانم - برنو قانوناً سماه المحرم شدد فيه على سكان دولته بعدم الاعتداء على من يدخل الإسلام من الوثنيين، وأن أموالهم ودمائهم تصبح حرام على الجميع⁽⁸²⁾.

وعلى عكس تلك المعاملة الحسنة التي تعامل بها العرب المسلمين مع رقيقهم الأفارقة، تعامل الأوروبيون مع الأفارقة معاملة سيئة لم يتطرق لها المؤلف توماس ارنولد، فقد كان البرتغاليون مثلاً يفدون بأعداد كبيرة إلى القارة الأفريقية لجمع الرقيق⁽⁸³⁾ والذين عمل الأوروبيون بعد نقلهم خارج بلادهم إلى تفريق الرجال

D.A.Forget, L' Islam et Il Christianisme dans l'Afrique Centrale, (Paris:1900), p.95.

(81) يُنظر: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، دار الفكر، (بغداد:

1986): 79/2 ؛ أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، صحيح مسلم بشرح النووي، دار

إحياء التراث العربي: 1/151.

(82) شوكت عارف محمد، دولة كانم الإسلامية - دراسة في الجوانب السياسية والاقتصادية في

القرن (5-8هـ / 11-14م)، رسالة ماجستير غير منشورة، (جامعة الموصل: 1996)،

ص60.

(83) رولاند اوليفر وجون فيج، موجز تاريخ أفريقيا، ترجمة: دولت صادق ومحمد السيد غلاب،

الدار المصرية للتأليف والترجمة (القاهرة: د.ت)، ص132.

عن عوائلهم بعد أن يتم اصطيادهم كما تُصاد الحيوانات من خلال حرق قرى
بأكملها لكي يتسنى للأوروبيين جمع الهاربين من الحرائق واستعبادهم، كما أن
عملية نقلهم إلى أوروبا وأمريكا كانت تتم بوحشية حيث تُعبأ السفينة التي تنتسح
لخمسمائة شخص بعدد أكبر بكثير ليرمى بعد ذلك في البحر من يموت بسبب
الزحام أو المرض⁽⁸⁴⁾.

خاتمة:

ومن خلال ما سبق لابد من الإشارة إلى النتائج التي تم التوصل إليها في
البحث والمتمثلة باستخدام توماس ارنولد لنصوص فيها إساءة لتاريخ الإسلام في
المنطقة وبعضها يحمل طابعاً أسطورياً، فضلاً عن ذلك فإن المؤلف ركز على
مناطق معينة في أفريقيا جنوب الصحراء وأغفل مناطق أخرى، واستخدام أمثلة
بسيطة جداً وبعيدة عن الواقع في مناقشة مسائل كبيرة كمسألة الرق مع وجود أمثلة
كبيرة في ذلك الجانب، كما أنه لم يُشر في كتابه إلى ما حصل من اعتداءات على
ممالك المسلمين في الحبشة من قبل المملكة النصرانية هناك وعلى الرغم من كل
ذلك فإن ما قام به يُعد عملاً جيداً وهو رجل غير مسلم وبعيداً نوعاً ما عن الواقع
الإسلامي فقد تحدث بشكل معقول مبيناً الجانب المشرق لتاريخ الإسلام هناك
مقارنة بدور الكنيسة ولسياسة التفريق بين الأبيض والأسود التي اتبعتها الأوروبيون.

A critical study of Thomas Arnold's views about Islam in Africa, south of Sahara until the 9th century AH/15th century AD

****Bashar Akram Jameel***

ABSTRACT

(84) عبد السلام الترماني، الرق ماضيه وحاضره، سلسلة عالم المعرفة، (الكويت: 1979)،
ص 156-157.

* Dept. of History / College of Arts/ University of Mosul.

The Europeans were greatly interested in Africa south of Sahara. So many books were written about the history of Islam in general and in Africa in particular. Some of these writings were fair, whereas others were unjust. One of those writers is the orientalist Thomas Arnold through his book "Call to Islam". In this book Arnold tackles spreading of Islam in various places, particularly in Africa.

The writer tackles African history into two chapters out of thirteen chapters of the book. He discussed in the first chapter the matter of spreading Islam among the Christians of Africa especially after the gradual declination of the Christian Church and the arrival of Muslims to "Nuba" (now Republic of Sudan). He discussed that history up to the 18th and 19th centuries. In the other chapter, the writer explains how Islam reached east and west coasts of Africa concentrating on the methods adopted by the Muslim propagandists to spread Islam.

Arnold's view about the stages of spreading Islam in Africa, south of Sahara, is tackled and the texts which assure the peaceful spread of Islam are shown. Then the mistakes which the writer fell into are shown and corrected. True historical evidence is scientifically used to criticize and correct his narrations.